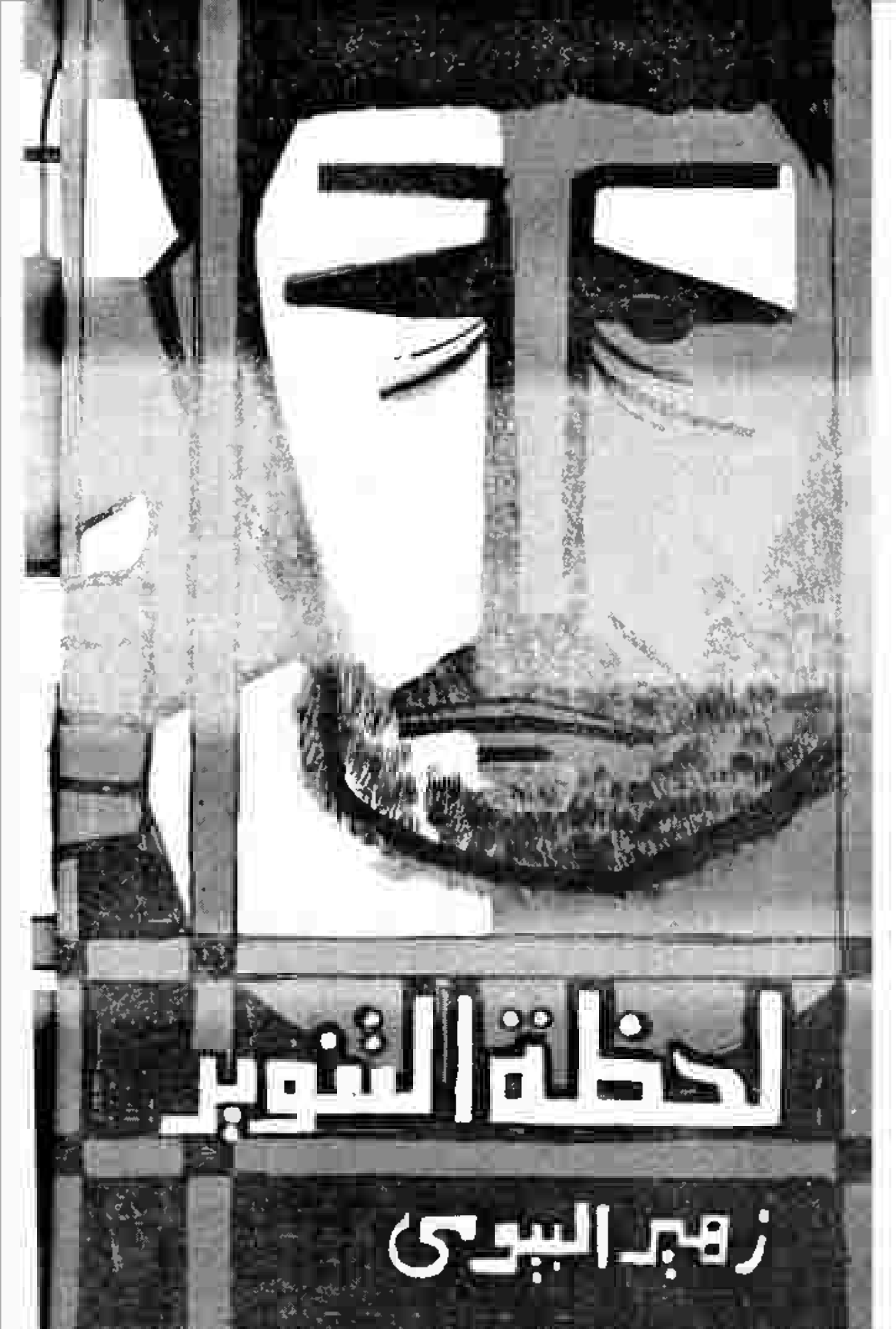

لحظة التنوير

زهير البيومي

ماعاد يذكر متى كان عهده بالسجن أول مرة ولا متى ألهمت الذكرى وجدانه بهذه الأمور التى لم يألفها منـــذ وقت بعيد .. هاهو ذا فى السجن مرة أخرى، وسيخرج منه ليكون على أعتابه من جديد ... وهـذا الصول الذى استقبله فى آخر مره دخل فيها السجن كان أول مرة رآه فيها لا يحمل الا شريطا واحدا . ولابد أنه قد أمضى وقتا طويلا حتى حصل على بقية الأشرطة ، وما بال ذلك القاضى الذى حكم فى آخر قضية له قد تغيرت سحنته هو الآخر ، كان أول مرة رآه فيها شابا حديث التخرج يشـغل وظيفة وكيل النائب العام ، فـلابد أنه

أيضا قد مضى وقتا طويلا حتى وصل الى هذه المكانة .. ولابد أنه قد جاب البلاد طولا وعرضا من الوجه القبلى الى الوجه البحرى وبالعكس . وانتهى به المقام ـ قاصيا تراكمت الهموم فى رحمها مع السنين على وجهه ، ويتمتم من خلف الظلمات :

ـ لا بأس ... لا بأس كلهم حصلوا على ترقيات وأنا الآخر قد تدرجت فى المناصب على مر السنين .. لص فرئيس عصابة ، ثم شيخ منصر ، وسأخرج من السجن لأصبح مدير مناصر القاهرة كلها .

الدنيا كلها تدور من حوله بينما هو يتردى فى ظلمات السجون حتى حسر معظمها اذ لا يوشك أن يخرج من السجن حتى يشده الحنين الى عتمته بعد أن يتعذر عليه العيش النظيف ، فما من مرة خرج من السجن الا وكانت الدنيا أشد اظلاما منها بداخله .. ولكن ها هو ذا الآن يشع النور من حواليته فى أول مرة يدخل فيها مكتبة السجن التى شيدت فى العهد الجديد .. كتب مسلية ، رائحتها تفتح فى النفس أبوابا تراكم عليها التراب ، وعلا الصدأ مزلاجها الذى أغلق منذ طرق باب السجن أول مرة وهجر الجامعة ، هجرها بسبب فتاة .. يا له من أحمق ، ولكنها قصة تجذر كتابتها على أية حال .

ويسحب كتابا لا يدرى ان كانت الحاجة قد أتت به أم الصدفة .. لعلها الذكرى .. كنت تلميذا نجيبا ذات يوم لذلك الرجل الذى ظل يتاجر فى البداية والنهاية منذ ربع قرن أو يزيد » .

ويقرأ بلسان يقطر مرارة على العمر الذى ضاع « القصة لابد لها من بداية .. وقد كانت منذ وقت بعيد ، معركة فى وسط الجامعة .. بسبب فتاة .. كان عدد الفتيات حينذاك لا يزيد على أصابع اليد ... ولعل ذلك كان سبب المعركة وليس جمال هذه الفتاة ، كانت جميلة فى أعيننا برغم دمامتها التى لم نكتشفها الا حين انعكست صورتها على صفحة الماء السائلة ، وبراها التحقيق من الذئب .. لم تحثنا على التقاتل ، ولم تكن تدرى بالواقعة ، بل لم تكن تعرف منا الا وجوهنا التى تعودت أن تحوم حولها ، فقد كان من غير المألوف أن تحدث الطالبات المعدودات زملاءهن ، وانتهى الأمر بدخولى السجن مع الجناة .. ربما حصلت على الليسانس منذ زمن ولم تعد تذكر من أمرنا شيئا ، وربما كانت تبيت الليلة فى أحضان زوجها وتربو اليه بعينى قطة تلتمس الدفء فى شهر أمشير « أحبك .. أعبدك » كلمات كان من الممكن أن تقولها لأحد الذين دخلوا السجن أو ماتوا بسببها لو أن أحدا منهم عكف على الدراسة حتى أتمها وتقدم لخطبتها ، وربما صرف النظر عنها الى أخرى ، فلابد أن هناك كثيرات يفقنها جمالا .. ولكنه النصيب .

ويقرأ مرة أخرى : « القصة لابد لها من بداية .. والبداية لا يصعب كتابتها .. ولابد أن تبدأ من موقف .. وها أنا ذا قد عشت الموقف ألف مرة ، ولابد أن يتوسطها الصراع والعقدة .. وهاهى نفسى بها من الصراع والعقد ما يكفى ألف قصة ... ولابد أن تنتهى القصة بلحظة التنوير لتكمل الحبكة القصصية .. لا هذا الناقد يحبكها أكثر من اللازم

.. سأكتب حتى أصل الى لحظة التنوير وعندها يحلها الكريم .

دخلت السجن في عهد لم يكن يفرق بين مجرم جاهل وآخر مثقف .. لا لم أكن مجرما .. لأحذف هذه الكلمة ، ولكن لاباس فلأتركها مادمت قدأصبحت هكذا فيما بعد .. ادخلوني في زنزانة واحدة مع اللصوص والقتلة والمحتكين الذين تعهدوني بالتعليم والصقل حتى أصبحت مثلهم .. نعم جعلوني مجرما .. لأحذف هذه العبارة الأخيرة أيضا فانها اسم لفيلم ، وربما رفع صاحب الفيلم قضية ضدي لأني اقتبست الاسم، ولكن لا بأس .. فلأترك هذه العبارة كما هي فان ذلك يثير ضجة حول قصتي

وضحك بعتة وهو يقول لنفسه : « ومن قال ان قصتي هذه سترى النور»

وعاد يكتب مرة أخرى وكأنما قد عقد العزم على أن ترى قصته النور .

في السجن يستوى المثقف والجاهل، وكم تمنيت حينذاك أن يستوى الرجل والمرأة حتى نسبق بذلك العالم الخارجي .. أو لعلني تمنيت ذلك لغرض في نفس يعقوب . هكذا يجب أن أكون صريحا في قصتي الى أقصى حدود الصراحة .. كان عدد السجينات قليلا جدا كعدد فتيات الجامعة حين التحقت بها .. سألني بعض المساجين عن سبب دخول الى السجن ، وضحكوا كثيرا حين علموا بالقصة ، وتوالت التعليقات الطريفة واللاذعة :

ـ بسبب تلميذة ؟!

ـ حصرته دون جوان ..

ـ الولد حلو ، وشعره مسبسب .

ـ يا خسارة ، والله ينفعنا في سرقة الكاديلاك .

ـ حسبناك سرويسا محترما .

وسأل عن معنى كلمة « سرويس » فصاح أحدهم

ـ قل له يا كوتو .

ـ سرويس .. كلمة أفرنجية معناها لص .. هات ثمن المعلومات القيمة .. سيجارة

وما أن أخرج العلبة من جيبه حتى عادت خالية ، ولم يعرف قيمتها الا حين أراد شراء أخرى ، ثمنها ثلاثة أضعاف ثمنها الحقيقي ، ولكنه اندمج معهم .. فهكذا كانت تقضي ظروف الحياة في هذا المكان . وعرف قصة كل منهم ، وتاريخه في الاجرام ، وكل يحاول أن ينسب الى نفسه ما طنه أمجادا ليست له ، ويستمر هو في كتابة قصته :

« كان مقدرا أن أمضي عشر سنوات في السجن ، ولكن شاء القدر أن يغير العهد بعهد جديد فخرجت بعد نصف المدة في الاعفاءات الثورية ، وكان حسن سيري وسلوكي شفيعين لي في ذلك ، ولكني خرجت والقيود لازالت تكبلني .. صحيفة السوابق ، يا لهامن كابوس لازال يؤرقني حتى الآن ، خرجت لأجد كل أبواب الحياة قد أغلقت دوني تماما، العمل ... لا عمل .

لا أريد أن أطيل عليكم ، قابلني أحد الزملاء الذين كانوا معي في السجن صدفة ، وذكرني بأني حلو ، وشعري مسبسب ، وبأني خليق بركوب الكاديلاك ، وما هي الا أسابيع قليلة

حتى أصبحت احصائيا تعطلت لديه كل العرائر ، الا عريزة الفك والتركيب ، أركب الكاديلاك لأدخل الى السجن ، ثم أخرج منه سائرا على قدمى فاركب أخرى وأعود اليه ·· والآن اما أن أتعود السير على أقدامى أو أعود الى السجن مرة أخرى فور خروجى منه ·

هذه هى القصة حتى الآن ·· ولابد أن أعثر على النهاية ·· لحظة التنوير ، الخروج من السجن لا يمكن أن يكون هو النهاية ، فكم من مرة خرجت من السجن دون أن أرى النور بسبب الورقة المشئومة ، صحيفة السوابق ·

ويعصر دماغه محاولا أن يختم القصة، دون جدوى ، فيقرر تركها كما هى ، ويقول لنفسه : « هكذا تنتهى بعض القصص دون نهاية محدودة ·· والمعنى فى بطن الشاعر ·· أنا كاتب طليعى »

هكذا قرر أن يقول لزميله الذى أصبح محررا بمجلة « الصباح » ، والذى عقد العزم على مقابلته فور خروجه من السجن ·· لديه البدلة الأنيقة لزوم ركوب الكاديلاك ، قرر أن يرتديها فى هذه الزيارة ، ويمتطى صهوة خياله الذى قفز أسوار السجن ليذهب به الى صديقه

ـ الاستاذ سيد البلطى ·· ان كان موجودا ، قل له صديق قديم ·

وضغط على أزراره حشية أن تذهب رهبة المكان بوقاره الذى ينم عنه مظهره ولا يدرى لماذا خطر له أن الساعى سيعود ليخبره بأن السيد البلطى غير موجود ، أو أن الساعى سيعود ليسأله عن اسمه ثم يذهب ليعود مرة أخرى

فيخبره بأن سيد البلطى غير موجود ، ويقطع عليه خواطره عودة الساعى قائلا له :

ـ تفضل .. الاستاذ فى اجتماع مع رئيس التحرير ، ولكن بوسعك انتظاره فى مكتبه لبضع دقائق .

وفى مكتب صديقه وجد هناك صحفيا آخر ، حياه برأسه ، ثم جلس صامتا وقد وضع ساقا على أخرى محاولا أن يبدو بمظهر الواثق من نفسه ، وما هى الا لحظات حتى وصل المقصود بالزيارة، فهب واقفا ليرحب به وكأنه هو المضيف :

ـ أهلا سيد .

ـ عباس ! .. اهلا .. متى خرجت؟

ـ اليوم فقط .. خرجت فى الصباح .. وقصدتك فى المساء .

ونظر سيد البلطى الى زميله الصحفى ثم قال :

ـ ألا زلت على نفس مبادئك ياعباس؟

ـ أى مبادىء ؟

قالها ثم لم يلبث أن فطن الى أن سيد يريد أن يوهم زميله الصحفى بأنه دخل السجن لاسباب سياسية وليس لأسباب اجرامية ، فبلع ريقه فى غيظ ثم قال فى نبرة كلها ثقة رغم ما بدا عليه من ضيق ألحقه به خجل سيد منه :

ـ آه .. لا .. قررت أن أبدأ حياتى الجديدة بعيدا عن السياسة ، ولهـذا قصدتك أول ما خرجت .

ـ أنا فى خدمتك .

ـ لدى قصة أريد أن أنشرها ..

ـ اذن فقد أصبحت مؤلفا ؟

ـ ولم لا ؟

ـ لا ... لا شىء ، ولكن كم قصة كتبت حتى الآن ؟

ـ قصة واحدة .. عصارة التجربة .

ـ واحدة فقط ؟

ـ نعم .. وأول العيث قطرة .

ـ أرنى اياها ..

وناوله القصة ، وراح يحملق فى الفضاء ريثما ينتهى سيد من قراءتها ، وعاد عليه الصحفى الجالس فى الطرف الآخر بسمة تقول له : « اذن فأنت مناضل » ، وكر هو على أثيابه وكأنما يجيبه قائلا : « مناضل .. نعم ، ولكن ليس كما تفهم ، أنا مناضل فى سبيل لقمة العيش » .

واستيقظ على صوت صديقه سيد وهو يضحك ضحكة بلهاء محـاولا أن يخفف من وقع كلامه :

ـ القصة لطيفة ، وصادقة ، ولكن أين النهاية ؟ .. لحظة التنوير ؟

ـ هذه ليست قصة تقليدية .. ألم تقرأ القصص الاجنبية التى تنتهى دون نهاية ؟

ظل سيد البلطى يجاريه حتى نهاية الجلسة ثم هم واقفا وقال له :

ـ اترك لى القصة ، وسأتولى أمرها بنفسى .

سر عباس بذلك ، وترك القصة له ، وعاد الى نفسه فى مكتبة السن بعد أن خيل اليه أن صديقه سيد قد اسقط شيئا ما فى جيبه حينما كان معه ... لعلها بعض النقود ، ولكنه وضع يده فى جيبه ليجده خاليا ، فعبس قليلا لأنه لم يجن شيئا من زيارته لسيد ، ومع ذلك لم يندم على ترك القصة له فكور الأوراق التى أمامه وألقى بها فى ركن الزراية .